دمية القصر

قلت : ولَعَمري إنه لم يقصّر في هذا المعنى قلماً ولساناً حيث وضع بإزاره إساءته إلى السؤال إحساناً يُعفّي على ذنبه وجعل بحذاء الجُرم عذراً يُسوّغ الاحتمال في جنبه . وجرت بيني وبين الشيخ أبي عامرٍ الجُرجاني مناشدة لِما قيل في أوصاف المَساويك ومذاكرة فيما انْشعبت إليه الخواطرُ في اختلاف معانيها . فأنشدني لبعضهم ثم قال وأظنّه لبشار بن برد : .

ماذا عليكِ دُفنتُ قبلكِ في الثرى ... من أنْ أكون خليفةَ المِسواكِ .

أيجوز ويحكِ أنْ يكونَ متيّمٌ ... في القَدر عندكِ دون عودِ أراك .

واستملحتُ تمنّيه خلافةَ المِسواك عَيمةً منه إلى ارتفاع ريقه وظمأً إلى ارتشاف درّه المغروس في عقيقه . وأنشدني الشيخ أبو محمد الحمداني قال : أنشدني أبو الجوائز لنفسه : .

واعتنقْنا ضَمّاً يذوبُ حصى اليا ... قوت منهُ وتَطْمئنّ النّهودُ .

ثم هبّت رُويحةُ الفجر والكا ... شحُ ناءٍ والعاذلاتُ رُقود .

كلّما نمّ للفُضول سوارٌ ... كذّبتْه قَلائدٌ وعقود .

قلن : وكنت أسمع قول ابن هِندو : .

تعانقْنا لتوديعٍ عَشِيّاً ... وقد شَرِقتْ بأدمُعها الحِداقُ .

فما زال العناقُ يضيقُ حتى ... تَشكَكْنا ؛ عِناقٌ أو خناق .

فأعجب به وأتعجّب منه مع استبشاع لفظة الخناق عند ذكر العناق تطيّراً منه حتى جاء أبو الجوائز في صفَة الضّمّ بالأكمل الأتمّ وهو قوله : وتطمئنّ النهود . فإنّ جميع ما قيل قبله على التقصير عنهما شُهود .

وقد اتّفقَ لي في معناه ما لا أحسبُني سُبقتُ إليه من قصدية وهو : .

واتفاقٍ حَسَنٍ ألْ ... لَفَ شَملاً قد تَبَدّدْ .

واعتناقٍ ضيّقٍ يُو ... هِمُكَ المزوجُ مُفرد .

وأما قوله : يذوب حصى الياقوت فيه فمعنىً حسن لا يكاد يتأخّر عنه قول ابن هِنْدو : .

ولَمّا أنْ تعانقْنا سَحَقْنا ... عقودَ الدُّرّ من ضيقِ العِناقِ .

فالأول ذَوبٌ تتذاوب فيه الأماني والثاني سحقٌ تتساحقُ عليه الغَواني . وله أيضاً C : .

أحببتُها حَبَشيّةً بجَبينها ... شَرطٌ يُضاعف شرط كلّ مُتيّمِ .

تقضي فينقاد القُضاةُ لحُكمها ... طَوعاً وتفتكُ بالكَمِيّ المقْدَمِ .

ومنَ الدليل على الشجاعة للفتى ... أثرُ الجراحِ بوجهه والمقْدَم .

وأنشدني الشيخ أبو عامر الجرجاني له : .

أمِنْ تِبريزَ شارفَني خَيالٌ ... وأصحابي بكاطمةٍ هُجودُ .

ضعيف المتْنِ لا يثنيه واشٍ ... يراصده ولا يعْييه بيد .

بَعثتُ إليه خالصتي فدقّتْ ... به منها مضبّرةٌ وخُودُ .

تَراماهُ الأماعِزُ والفَيافي ... وتلفظُهُ التّهائمُ والنّجُودُ .

ويَنهى البيضَ أنْ يسلبنَ قَرْني ... ذوائبُ تستثيرُ الوجْدَ سودُ .

تنظّرُ زَورتي خَود لَعوبٌ ... وتحذَرُ نَفْرتي هيفاءُ رُودُ .

وكم سمحتْ صَدوفُ ولا رقيبٌ ... يُحرّمُ ضمّها إلاّ النّهودُ .

قلت : ما زالت الشعراء يعدّون نفحَ الطيب من الوُشاة وجرسَ الحَلْي من الرّقباء فنهدَ أبو الجوائز إلى النّهود وعدّهُ من المحذور وزاد به نغمةً في الطنبور . وفي هذه القصيدة يقول : .

وأُطلقُ في رحاب المجدِ عَزْماً ... له من صُنع أخلاقي قيودُ .

إذا ما أُخلقتْ أبرادُ حالي ... فبُرْدُ الصبرِ يا بأبي جَديدُ .

فويْلُمّ المَكارم من زمانٍ ... لئيمٍ وعْدَه فينا وَعيد .

تَفانتْ أنفُسُ الأحياء حتى ... غَدَوا ولُحومُهُمْ لهمُ لُحود .

وأبطالٌ إذا شَرعوا العَوالي ... فليس وُرودَها إلاّ الوريد .

هُم البيضُ القَواطعُ حين يُمْسي ... لهمْ من نسجِ خَيلهمُ عَمودُ .

بَنو حربٍ لهم عَلَقُ الأعادي ... رضاعٌ والسّروجُ لهمْ مُهودُ .

ولم يبرحْ على الصّهَوات منهُمْ ... قيامٌ بالعُلا وهُمُ قُعود .

وأنشدني أيضاً له :